الأسلوب في أسرار البلاغة
لعبد القاهر الجرجاني
دراسة وتحليل

د . توفيق ابراهيم صالح
استاذ مساعد
قسم اللغة العربية
كلية التربية / جامعة كركوك

الخلاصة :

هدف البحث الى الكشف عن مفهوم عبدالقاهر الجرجاني للأسلوب من خلال كتابه أسرار البلاغة وبعد الطواف في ثنايا هذا الكتاب تبين أنّه ربط الأسلوب من الناحية النظرية والتطبيقية بمفهومه للنظم ، وبناء على هذا حدد مفهوم الأسلوب بأنّه الضرب من النظم والطريقة فيه ، وجميع الفنون البيانية هي عناصر أسلوبية ، فالسجع المتكلف يرهق الأسلوب ويضعفه ، وخير السجع ما يستدعيه المعنى وتتطلبه الحاجة ، والمعاني تترتب أولاً في النفس ثم تنسج الألفاظ على منوالها في النطق ، والتشبيه يوقع المبالغة في نفس المتلقي من حيث لايشعر ، ويولد في نفسه الشعور بالفرح ، وأما الإستعارة بأشكالها المختلفة فهي ترفد الأسلوب بمقومات الجمال، وتقدم البيان في صورة مستجدة، وتمنحه فضلاً وتزيد قدره نبلاً، والتمثيل لايقلّ أهمية عمّا سلف فله دور كبير في التأثير على المتلقي فهو يجعل موقع الأسلوب في النفس ألطف وأجلّ .

الأسلوب في أسرار البلاغة

بحثَ عبد القاهر الجرجاني الأسلوب في كتابه دلائل الإعجاز من خلال ما أسماه بنظرية النظم بحثاً مستفيظاً قائماً على دراسة العلاقة النحوية في الجملة من حيث علاقة المفردة بما يسبقها وما يتلوها ، وكان حافزه في هذا قضية اللفظ والمعنى أو الشكل والمضمون كما يسميه النقاد المحدثون .

وقد انقسم النقاد العرب القدامى بشأن ذلك بين مناصر لِلّفظ ومناصر للمعنى ونخص بالذكر من هؤلاء النقاد : بشر بن المعتمر (ت ٢١٠ هـ) والجاحظ (ت ٢٥٥هـ) وابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) وابن طباطبا (ت ٣٢٢ هـ) والقاضي الجرجاني (ت٣٣٦هـ) وقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) وأبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) وابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ) ... وقد انتهت آراء هؤلاء وغيرهم الى عبدالقاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) فكان من أثر هذا عليه نتاجه نظرية النظم في كتابه دلائل الإعجاز وكتاب أسرار البلاغة الذي قصره على المباحث البيانية وقد وضع فيه الأصول والقوانين وبيّن الأقسام وذكر الفروق بين الفنون البيانية .

وقد بدأ عبدالقاهر كتابه أسرار البلاغة بالحديث على اللفظ والمعنى وبعض صور البديع كالسجع والتجنيس ثم تكلم على الإستعارة والتمثيل ثم على التشبيه الذي عليه بُنِيَتْ عليه الإستعارة وتكلم أيضاً على السرقة- كما سمّاها - وختم ذلك كله بالحديث على الحقيقة والمجاز ، ومسايرة لعبدالقاهر الجرجاني في نهجه فقد تناولت هذه الأقسام حسب تسلسلها وترتيبها عنده

باحثاً فيها عن مفهوم الأسلوب وسماته ومنقراً عمّا يوضح هذه السمات ويكشف رؤية عبدالقاهر تجاهها .

وإذن فدلائل الإعجاز احتوت على القواعد الفنية والجمالية للبلاغة فكانت الأساس الذي اعتمده في أسرار البلاغة لوضع قواعد نفسية جديدة وقواعد اسلوبية اتضحت في تطبيقاته العملية التي تعين على فهم النص ، وهذا يعني أنّ تأليف كتاب أ سرار البلاغة كان بعد دلائل الإعجاز والدليل على ذلك هو ما " يجري في كلامه من دقة واستيعاب ، وضبط وإحكام ، ولما ينشر فيه من آراء نفسية لاعهد لنا بها في الدلائل ، وكأنّما له أداته في تصوير دقائق التراكيب البلاغية وأثرها فـي النفوس " (١) ، وزيادة على هذا " آراؤه في الأسرار أدق وأوضح منها في الدلائل ، مما يؤكد أنه صنعه بعده " (٢) .

انطلق عبدالقاهر الجرجاني في حديثه عن الأسلوب في أسرار البلاغة من نظرته الفلسفية في جدلية الترابط بين اللفظ والمعنى التي استمر فيها الجدال طويلاً ، وراى أنّ بعض النقاد والبلاغيين أسرف في تعظيم اللفظ ونعته بشيء من النعوت دون المعنى ، وقد علق على ذلك قائلاً : " ومن المعلوم أنْ لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يجري مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت ، وينسب فيه الفضل والمزية اليه دون المعنى " (٣) ، فالألفاظ عنده لاتفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف ، ويعمد بها الى وجه دون وجه من التركيب والترتيب ، إذ يقول : " إنّ الألفاظ لاتتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة ، وإنّ الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة ماقبلها أو ما أشبه ، إنّك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر " (٤) .

وعلى الرغم من رؤية عبدالقاهر الجرجاني أنّ النظم اساس في الجمال الأدبي وعدم إيمانه بثنائية اللفظ والمعنى إلا أنه أفاد إفادة كبيرة من أنصار اللفظ ولاسيما الجاحظ ، ففي كتب الجاحظ بذور لأفكار عبدالقاهر الجرجاني (٥) ، ولكن أصالته تجلت في ثورته على معاصريه ممن اشتطوا في نصرة اللفظ حتى غفلوا به عن الغاية ، وقد عبر عن هذا حين قال : " إن أردت الصدق فإنك لا ترى في الدنيا شيئاً أعجب من شأن الناس مع اللفظ ، ولافساد رأي مازج النفوس وخامرها ، واستحكم فيها ، وصار كإحدى طبائعها، أغرب من فساد رأيهم في اللفظ ، فقد بلغ من ملكته وقوته عليهم أنْ تركهم وكأنّهم إذا نوظروا فيه أخذوا من أنفسهم ، وغيبوا من عقولهم ، وحيل بينهم وبين أن يكون فيما يسمعونه نظر " (٦) .

لقد دافع عبدالقاهر الجرجاني عن المعنى من خلال الأسلوب الذي عرفه بأنه " الضرب من النظم والطريقة فيه " (٧) ، فهو يساوي بين الأسلوب والنظم ، والنظم عنده " توخي معاني النحو وأحكامه وفروقه ووجوهه، والعمل بقوانينه وأصوله " (٨) . إنّ فلسفته في دراسة الأسلوب قائمة على معاني النحو من خلال دراسة الجملة من حيث علاقة المفردة بما يسبقها وما يتلوها وكيفية ترتيبها في النفس ، يقول عبدالقاهر في ذلك : إنّك ترتب المعاني أولاًفي نفسك ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك (٩) ، فالمعنى عنده هو الأساس في الجملة ؛ لأننا " لو فرضنا أنْ تخلو الألفاظ من المعاني لم يتصور أنْ يجب فيها نظم وترتيب في غاية القوة والظهور " (١٠) ، أما الألفاظ فتتكافل مع المعاني لأبراز الفكرة من خلال صياغة محكمة قائمة على قضية العقل كما يقول عبدالقاهر : " وهذا الحكم يقع في الألفاظ مرتباً على المعاني في النفس المنتظمة فيها على قضية العقل " (١١) .

ثم يرط عبدالقاهر بين النظم – الأسلوب – وبين المعانــي والأغراض إذ يقول : " إنّ مزية النظم ليس في معاني النحو أنفسها ، ومن حيث هي على الإطلاق ، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام ، ثم بحسب موقع بعضها من بعض ، واستعمال

بعضها من بعض " (١٢) ، " بل ليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضع وبحسب المعنى الذي تريد ، والغرض الذي تؤم ، وإنّما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصور والنقوش " (١٣) .

وإذن " دراسة اسلوب الكلام من حيث التعبير والتصوير والتحسين لايقع إلا من خلال النظم " (١٤) و " الإستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم ، وعنها يحدث ، وبها يكون ؛ لأنه لايتصور أنْ يدخل شيء منها في الكلم وهي افراد لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو ، فلا يتصور أنْ يكون ههنا فعل أو اسم قد دخلته الإستعارة من دون أن يكون قد ألف مع غيره " (١٥) ، ولا يؤتى بالتحسين إلا إذا طلبه المعنى واستدعاه وساقه نحوه (١٦) .

وهذا يعني " انّ الفكر ينجز نفسه بالتعبير ضمن الأشكال ... ومن هنا فإنّ دراسة التعبير تقف على ناصية اللغة والتفكير " (١٧) وإذن فالأسلوب هو " طريقة التفكير والتصوير والتعبير " (١٨) ، وقد " كان من صنيع عبد القاهر أنْ يجمع فنون البلاغة حول فكرته ويجعلها تنقاد لرأيه " (١٩) ، وقد أوضح عبدالقاهر في كتابه – اسرار البلاغة – دور المباحث البيانية في النظم أو الأسلوب بما تمنحه من قوة إيحائية ، وصبغة جمالية ، وما تلعبه من تأثير كبير في نفسية المتلقي .

أي أنّ عبدالقاهر الجرجاني " لم يتخل عن الذوق الأدبي الذي يسير بالقارئ نحو تلمس صفات الجمال في العمل الأدبي ، وذلك حيث لاتجدي القاعدة ، ولا ينفع القياس " (٢٠) ؛ وبذلك نحا عبد القاهر منحىً نفسياً في دراسة الأسلوب زيادة على المنحى اللغوي والنحوي الذي " يضبط قوانين الكلام بحيث يحدد لنا ما لانستطيع أنْ نقول ، ولذلك فالأسلوبية رهينة النحو ، إذ لاأسلوب بلا نحو " (٢١) ، وهذا ما جعل الجرجاني رائداً في هذا المجال .

والأسلوب كما يرى الشايب " ينحل الثلاث عناصر : الأفكار والصور والعبارات " (٢٢) و"هناك عنصر العاطفة الذي يعدّ في الأدب الدافع الى القول وروحه، وهذا العنصر هام الى درجة أنه احتاج غالباً لأجل أدائه الى الخيال الذي هو لغة العاطفة ووسيلة تصويرها من ناحية الأديب وبعثها في نفوس القارئين ... فالعاطفة في الأدب عنصر أسلوبي يحسّ دون أنْ يشرح أو يعرض عرضاً مباشراً صريحاً " (٢٣) ، وتصوير العاطفة يحتاج الى " عناصر وفنون بلاغية من التشبيه والإستعارة والكناية ... فهذه الصور تؤلف عنصراً ثالثاً هو الخيال ، وهو لازم في كثير من الأحيان للتعبير عن العاطفة " (٢٤) ، وهذه الفنون البيانية تناولها عبدالقاهر بالوصف قائلاً: " وأول ذلك وأولاه ، وأحقه بأن يستوفيه النظر ويتقصاه: القول على التشبيه والتمثيل والإستعارة ، فإنّ هذه أصول كثيرة كان جلّ محاسن الكلام إنْ لم نقل كلّها متفرعة عنها وراجعة اليها ، وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها " (٢٥) .

فإذاً يمكن القول إنّ عبدالقاهر يركز على ترتيب المعاني في النفس قبل أن تكون ألفاظاً منسقة في النطق ، ويركز على الطريقة الخاصة في ترتيب المعاني ، وما تحويه من إمكانيات نحوية تميّز ضرباً عن ضرب ، وأسلوباً عن أسلوب ، كما يعتمد عبدالقاهر على أنْ تكون المعاني واقعة من العقل موقعاً حميداً ، إذ يقول في التجنيس " إنّك لاتستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنيهما مـن العقل حميداً ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً ، أتراك استضعفت تجنيس أبي تمام في قوله :

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت   فيه الظنون أمَذهبٌ أم مُذهبُ

واستحسنت تجنيس القائل : حتى نجا من خوفه وما نجا ، لأمر يرجع الى اللفظ ؟ أم لأنّك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت في الثاني ؟ ... فبهذه السريرة صار التجنيس وخصوصاً المستوفي منه المتفق في الصورة – من حليّ الشعر – ومذكوراً في أقسام البديع " (٢٦) .

أما السجع فهو الآخر وإن كان يمنح الأسلوب حلاوة وجرساً موسيقياً جميلاً فينبغي تجنب الذي لاطائل منه ؛ لأنه يرهق الأسلوب ويضعف المعنى إذا كان قائله غير عارف بأسرار اللغة ، بل وكما يرى عبدالقاهر أنّ " العارفين بجواهر الكلام لايعرجون على هذا الفن إلا بعد الثقة بسلامة المعنى وصحته وإلا حيث يأمنون جناية منه عليه ، وانتقاصاً له وتعويقاً دونه " (٢٧) .

وحظي الذوق والحالة النفسية بإهتمام عبدالقاهر وكان المعنى ركيزة اعتمد عليها للتعبير عن آرائه إذ يقول : إنك " لاتجد تجنيساً مقبولاً ، ولا سجعاً حسناً ، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه ، وساق نحوه ، وحتى تجده لا تبتغي به بديلاً ، ولا تجد عنه حولاً ، ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه : ما وقع من غير قصد من المتكلم الى اجتلابه ، وتأهب لطلبه أو ما هو لحسن ملاءمته – وإن كان مطلوباً – بهذه المنزلة وفي هذه الصورة " (٢٨) .

ولو أنّ المتكلم مثلما يرى عبدالقاهر " رام تركهما الى خلافهما مما لا تجنيس فيه ، ولا سجع لدخل من عقوق المعنى ، وادخال الوحشة عليه في شبيه بما ينسب اليه المتكلف للتجنيس المستكره ، والسجع النافر " (٢٩) .

وبما أنّ الإستعارة من مقتضيات النظم ؛ يحاول عبدالقاهر أنْ يربط بينها وبين الأسلوب أو يربط الأسلوب بخاصية الإستعارة التي تتخذ أساليب كثيرة ، ومسالك دقيقة مختلفة ، ويرى عبدالقاهر أنّ الإستعارة " أمدّ ميداناً ، وأشدّ افتتاناً ، وأكثر جرياناً ، وأعجب حسناً ، وأوسع سعة ، وأبعد غوراً ، وأذهب نجداً في الصناعة وغوراً من أنْ يجمع شعبها وشعوبها ، وتحصر فنونها وضروبها ، نعم وأسحر سحراً، وأملأ بكل ما يملأ صدراً، ويمتنع عقلاً، ويؤنس نفساً، ويوفرأنساً " (٣٠) .

وفي الحديث عن الضرب الثالث من الإستعارة الذي عرفه عبدالقاهر بقوله : " أنْ يكون الشبه مأخوذاً من الصور العقلية " (٣١) يؤكد عبدالقاهر على ربط الأسلوب بخاصية الإستعارة وما بينهما من علائق قوية قائلاً : " واعلم أنّ هذا الضرب هو المنزلة التي تبلغ عندها الإستعارة غاية شرفها ، ويتسع لها كيف شاءت المجال في تفننها وتصرفها ، وههنا تخلص لطيفة روحانية ، فلا يبصرها إلا ذوو الأذهان الصافية ، والعقول النافذة ، والطباع السليمة ، والنفوس المستعدة لأن تعي الحكمة ، وتعرف فصل الخطاب .
ولها ههنا أساليب كثيرة ومسالك دقيقة مختلفة ، والقول الذي يجري مجرى القانون والقسمة يغمض فيها ، إلا أنّ ما يجب أنْ تعلم في معنى التقسيم لها أنّها على أصول : أحدهما أنْ يؤخذ الشبه من الأشياء المشاهدة والمدركة بالحواس على الجملة للمعاني المعقولة ، والثاني أنْ يؤخذ الشبه من الأشياء المحسوسة لمثلها ، إلا أنّ الشبه مع ذلك عقلي ، والأصل الثالث أنْ يؤخذ الشبه من المعقول للمعقول " (٣٢) .

وإذاً يمكن القول إنّ كيفية الإتيان بالإستعارة يميز الأسلوب ، ويحدد طبيعته ، ولا شك أنّ المفهوم القديم للأسلوب " يظهر أكثر ارتباطاً بالبلاغة " (٣٣) ، كما هو الحال في أسرار البلاغة .

إنّ عبدالقاهراعتمد على فكرة النظم والعلاقات اللغوية المتشابكة ، وربط الأسلوب بالمباحث البيانية التي عدّها جزءاً من النظم ، وعنصراً بارزاً فيه ؛ لأنه كان يبتغي من خلال عرضه لفكرة النظم أنْ يبرز مزايا وسمات الأسلوب الإيجابية والسلبية ، ومدى تأثير ذلك على القارئ أو المستمع ، وبناءً على هذا فالأسلوب إذن هو " جزء من صنعة الإقناع " (٣٤) التي تحتاج الى وسائل تأثير .

لقد رأى عبدالقاهر أنّ استخدام الإستعارة بأشكال مختلفة في سياق نظم دقيق يوجب لها الفضيلة ، ومن فضائلها الجامعة أنها " تبرز ... البيان أبداً في صورة مستجدة تزيد قدره نبلاً ، وتوجب له بعد الفضل فضلاً ، وإنّك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد ، حتى تراها مكررة في مواضع ، ولها في كلّ واحد من تلك المواضع شأن مفرد ، وشرف منفرد ... " (٣٥) .

وإذا كانت الإستعارة إحدى الوسائل الأسلوبية عند عبدالقاهر فالتمثيل وسيلة أخرى عنده وقد ربط الأسلوب بها مثلما ربطه بالإستعارة ، بيد أنّ الأسلوب في التمثيل غيره في الإستعارة فهو " إذا أتاك ممثلاً فهو في الأكثر ينجلي لك بعد أنْ يحوجك الى طلبه بالفكرة ، وتحريك الخاطر له ، والهمة في طلبه ، وما كان منه ألطف كان امتناعه عليك أكثر ، وإباؤه أظهر ، واحتجاجه أشدّ " (٣٦) .

وقد نحا عبدالقاهر منحى نفسياً في منهجه حين اهتم بنفسية المتلقي اهتماماً كبيراً وحاول صياغة المعنى بأسلوب متميز يترك أثراً واضحاً في نفسه من خلال تركيزه على اختيار المعنى ، حيث ينبغي على المبدع أنْ يدقق النظر فيه ؛ لأنّ المعنى سيشكل خصيصة من خصائص الأسلوب التي تميز الفنان ، والمعنى عند عبدالقاهر يجب أنْ يكون الحصول عليه بعد كدّ الفكر وشحذ الذهن " لأنّ من المركوز في الطبع أنّ الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الإشتياق إليه ، ومعاناة الحنين نحوه ، كان نيله أحلى ، وبالميزة الأولى ، فكان موقعه من النفس أجلّ وألطف ، وكانت به أضنّ وأشغف ، وكذلك ضرب المثل لكلّ ما لطف موقعه ... فإنْ قلت فيجب على هذا أنْ يكون التعقيد والتعمية وتعمد ما يكسب المعنى غموضاً شرفاً له ، وزائداً في فضله ، وهذا خلاف ما عليه الناس ؟ ! فالجواب أنّي لم أرد هذا الحدّ من الفكر والتعب ، وإنّما أردت القدر الذي يحتاج اليه في نحو قوله : فإنّ المسك بعض دم الغزال " (٣٧) .

إنّ المبدع عند عبدالقاهر هو الذي يتفنن بإبراز الخصائص الأسلوبية بحيث يشدّ القارئ اليه بما يمنح أسلوبه من قوة تأثير في النفس .

أما جمال الأسلوب من خلال صيغ التمثيل إذا ما كان التمثيل وسيلته وحال المعنى معه فيقول عنه عبدالقاهر : " واعلم أنّ ما اتفق العقلاء عليه أنّ التمثيل إذا جاء في اعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورها الأصيلة الى صورته ، كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ... فإنْ كان مدحاً كان أبهى وأفخم ... وإنْ كان ذمّاً كان مسّه أوجع ، وميسمه ألذع ... وإنْ كان حجاجاً كان برهانه أنور ... وإنْ كان اعتذاراً كان الى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ... " (٣٨) .

و عقد عبدالقاهر عدّة مباحث عن التشبيه وربط الأسلوب به بوصفه أحد وسائله وبوصف التشبيه يمثل الوسيلة التي تعبر عن المعنى ، وبعدّ " الأسلوب وجهاً من وجوه المعنى " (٣٩) ولا سيما في قلب التشبيه ، وقد تجلى ذلك في تعليقه على قول محمد بن وهيب : "

وبدا الصباح كأنّ غرّته وجه الخليفة حين يمتدحُ
فهذا على أنّه جعل وجه الخليفة كأنّه أعرف وأشهر ، وأتمّ وأكمل في النور والضياء من الصباح ، فاستقام له بحكم هذه النية أنْ يجعل الصباح فرعاً ووجه الخليفة أصلاً .

واعلم أنّ هذه الدعوى وإنْ كنت تراها تشبه قولهم : لايدري أوجهه أنورأم الصبح ؟ وغرّته أضوأ أم البدر؟ وقولهم إذا أفرطوا : نور الصبح يخفى في ضوء وجهه أو نور الشمس مسروق من جبينه ، وما جرى في هذا الأسلوب من وجوه الإغراق والمبالغة فإنّ في الطريقة الأولى خلابة وشيئاً من السحر .

وجهته الساحرة أنّه يوقع المبالغة في نفسك حيث لاتشعر ، ويفيدكها من غير أنْ يظهر ادعاؤه لها لأنه وضع كلامه وضع من يقيس على أصل متفق عليه " (٤٠) .

ومثلما آمن عبدالقاهر بأنّ " الأسلوب جزء من المعنى " (٤١) فإنه ربط بين طريقة الإتيان بالمعنى وبين الأسلوب وبين تأثير المعاني على المتلقي حين قال : " والمعاني إذا وردت على النفس هذا المورد كان لها ضرب من السرور خاص ، وحدث بها نوع من الفرح عجيب "(٤٢) .

ويؤكد عبدالقاهر على العلاقة بين أشكال التعبير وخاصية الأسلوب من خلال النظم في توخي العلاقة بين الألفاظ والجمل ، وارتباط ذلك بقدرة المبدع الفنية بحيث يمثل ذلك نمطاً خاصاً – أو أسلوباً خاصاً – من الكلام في حديثه عن أحد وجوه الشبه ، وهو الشبه العقلي ، إذ قال : " واعلم أنّ هذا الشبه حكمه واحد سواء أخذته ما بين العقل والمعقول الصريح ، أو ما يجري مجرى المعقول . فالمعقول كالقوس في قولك : " أخذ القوس باريها " ، وما يجري مجرى المعقول الجار والمجرور كقولك :
" كالرقم في الماء " . وهو كمن يخط في الماء ، وكذلك الحال في قولهم : " كالحادي وليس له بعير " ، فقولك : وليس له بعير جملة من الحال وقد احتاج الشبه اليها ؛ لأنه مأخوذ مابين المعنى الذي هو الحدو وبين هذه الحال ، كما كان مأخوذاً بين الرقم والماء ، وما بين الفتل والذروة والقارب ، وقد تجد بك حاجة الى معقول ، والى الجار مع المجرور كقولك : " وهل يجمع السيفان في الغمد " ؟ وأنت كمن يجمع السيفين في غمد ، ألا ترى أنّ الجمع فيه لا يغني بتعديه الى السيفين حتى يشترط كونه جمعاً لهما في الغمد ، فمجموع ذلك كلّه يحصل الغرض " (٤٣) .

وعلى حدّ قول عبدالقاهر فإنّ التشبيه والتمثيل والإستعارة من الأقطاب التي تدور عليها المعاني في متصرفاتها (٤٤) ؛ لذلك حاول عبدالقاهر توثيق الصلة بين المعنى وبين النظم ، وآثر ذلك على الأسلوب ، إذ يقول : " وقد يجيء الشيئ من هذا القبيل يتوهم فيه أنّ أحد الجملتين أو الجمل تنفرد وتستعمل بنفسها تشبيهاً وتمثيلاً ، ثم يكون كذلك عند حسن التأمل ، مثال ذلك قوله :
كما أبرقت قوماً عطاشاً غمامة فلما رأوها أقشعت وتجلتِ
هذا مثل في أنْ يظهر للمضطر الى الشيئ الجديد الحاجة اليه إمارة وجوده ثم يفوته ، ويبقى لذلك بحسرة وزيادة ترح ، وقد يمكن أنْ يقال : إنّ قولك " أبرقت قوماً عطاشاً غمامة " تشبيه مستقل بنفسه لا حاجة به الى مابعده من تمام البيت في إفادة المقصود الذي هو ظهور أمر مطمع لمن هو شديد الحاجة ، إلا أنّه وإنْ كان كذلك فإنّ حقنا أنْ ننظر في مغزى المتكلم في تشبيهه .

ونحن نعلم أنّ المغزى أنْ يصل ابتداءً مطمعاً بانتهاء مؤيس ، وذلك يقتضي وقوف الجملة الأولى على مابعدها من تمام البيت . وَوَازِنُ هذا أنّ الشرط والجزاء جملتان ، ولكننا نقول أنّ حكمهما حكم جملة واحدة من حيث دخل الكلام معنىً يربط إحداهما بالأخرى ، حتى صارت الجملة لذلك بمنزلة الاسم المفرد في امتناع أنْ تحصل به الفائدة " (٤٥) .

كما ربط عبدالقاهر المعنى وصياغته في قالب مناسب بترتيب الألفاظ وبالدلالة على الغرض وما يلف الأسلوب من غموض في وضوح المعنى وانعكاس ذلك على المتلقي في المبحث الذي عقده عن التعقيد قائلاً : " وأما التعقيد فإنّما كان مذموماً لأجل أنّ اللفظ لم يرتب الترتيب الذي يمثله تحصيل الدلالة على الغرض ، حتى احتاج السامع أنْ يطلب المعنى بالحيلة ، ويسعى اليه من غير طريق كقوله :

وكذا اسم تغطية العيون جفونها من أنّها محمل السيف عوامل وإنّما ذمّ هذا الجنس لأنه أحوجك الى فكر زائد على المقدار الذي يجب في مثله ، وكذلك بسوء الدلالة ، وأودع المعنى لك في قالب غير مستوٍ ولا مُمَلسٍ بل خشن مضرس ، حتى إذا رمت إخراجه منك عسر عليك ، وإذا خرج خرج مشوهاً ناقص الحس .

هذا وإنّما يزيد الطلب فرحاً بالمعنى وأنساً به ، وسروراً بالوقوف عليه إذا كان لذلك أهلاً ، وأمّا إذا كنت معه كالغائص في البحر يحمل المشقة العظيمة ، ويخاطر بالروح ثم يخرج الخرز فالأمر بالضد مما بدأت به " (٤٦) .

ويذم مثل هذا التركيب عند الجرجاني لغرابة ترتيبه بحيث يعمي الإعراب في طريقه ، ولا يهتدي النحو الى اصلاحه ، أي أنّه يربط التركيب بالنظم الذي هو توخي المعاني والسير على أصوله ومناهجه " وذلك مثل ما تجده لأبي تمام من تعسفه في اللفظ ، وذهابه به في نحو من التركيب لايهتدي النحو إلى إصلاحه ، وإغراب في الترتيب يعمي الإعراب في طريقه ويضلّ في تعريفه " (٤٧) ؛ لأنّ " المعاني الشريفة اللطيفة لابد لها من بناء ثانٍ على أول وردّ تالٍ الى سابق " (٤٨) ، فالمعاني مرتبطة ببناء الجمل لتشكيل الأسلوب الذي يميز كاتباً عن كاتب ؛ لأنّه وإنْ كان لبعض الناس أفكار واحدة بوجه التقريب " فالأسلوب يفرق بين كاتب وكاتب " (٤٩) .

إنّ عبدالقاهر يؤكد على العلاقة بين طبيعة التعبير والأسلوب من حيث بناء الجملة نحوياً ، وارتباط ذلك بمقدرة المبدع وابداعه حيث أنّ نظم الألفاظ والجمل يمثل أسلوباً، ومثال ذلك إشارة عبدالقاهر إلى أبيات ابن المعتز وحسن التعليل فيها ، إذ يقول:" ومن هذا الجنس قول ابن المعتز في السيف في أبيات قالها في الموفق هي :

وفارس أغمد في جنة　　　يقطع السيفُ إذا ما ورد
كأنّه ماء عليه جرى　　　حتى إذا ما غاب فيه جمد
في كفه عضب إذا هزّه　　　حسبته من خوفه يرتعد

فقد أراد أنْ يخترع لهذه السيف علة فجعلها رعدة تناله من خوف الممدوح وهيبته " (٥٠).

إنّ عبدالقاهر يجعل المعاني الأساس الذي تقوم عليه مباحثه البيانية ومنها المجاز العقلي والمجاز اللغوي ، ويربط المعاني بالنظم فهي المدار الذي تدور حوله، إذ يقول : " والذي ينبغي أنْ يذكر الآن حدّ الكلمة في الحقيقة والمجاز إلا أنّك تحتاج أنْ تعرف في صدر القول عليها ومقدمته أصلاً وهو المعنى الذي من أجله أختصت الفائدة بالجملة ، ولم تجز حصولها بالكلمة

الواحدة كالأسم الواحد والفعل من غير اسم يضم اليه ، والعلة في ذلك أنّ مدار الفائدة في الحقيقة على الإثبات والنفي ، ألا ترى أنّ الخبر أول معاني الكلام وأقدمها والذي تستند سائر المعاني اليه ، وتترتب عليه ؟ وهو ينقسم الى هذين الحكمين . وإذا ثبت ذلك فإنّ الإثبات يقتضي مثبتاً ومثبتاً له ، نحو إنّك إذا قلت : ضرب زيد ، أو زيد ضرب ، فقد أثبت الضرب فعلاً أو وصفاً ، وكذلك النفي يقتضي منفياً ومنفياً عنه، فإذا قلت ما ضرب زيد ، ما زيد ضارب ، فقد نفيت الضرب عن زيد ، وأخرجته عن أنْ يكون فعلاً له ... وإذا رمت الفائدة أنْ تحصل لك من الإسم الواحد أو الفعل وحده صرت كأنّك تطلب أنْ يكون الشيئ الواحد مثبتاً ومثبتاً له ومنفياً ومنفياً عنه ، وذلك محال " (٥١) .

وخلاصة استقرائنا لمفهوم الأسلوب في أسرار البلاغة هو انّ الأسلوب عند عبدالقاهر يرتبط من الناحية النظرية والتطبيقية بمفهومه للنظم من حيث نظم المعاني في النفس ، والنسج على منوالها في النطق ، وما يترتب على هذا من تنوع في الأساليب ، وإنّ الصعوبة تحصل بالقدرة على الإتيان بالمعاني كما يقول عبدالقاهر" ... وكيف يتصور أنْ يصعب مرام اللفظ بسبب المعنى ؟! وأنت إنْ أردت الحقّ لاتطلب اللفظ بحال ، وإنّما تطلب المعنى ، وإذا ظفرت بالمعنى فاللفظ معك ، وازاء ناظرك " (٥٢) .

يضاف إلى ذلك أنّ طريقة ترتيب المعاني في بناء الجملة ، وما تحويه هذه البنية من قدرات نحوية ، تصبغ الأساليب بصبغات خاصة ، وتجعلها تتسم بسمات معينة ، فتميز طريقة عن طريقة وأسلوباً عن أسلوب وقد عدّ الفنون البيانية عناصر أسلوبية ترفد الأسلوب بمقومات الجمال وتجعل وقعه في النفس ألطف وأجلّ .

وهذا المفهوم للأسلوب عند عبدالقاهر يطلق عليه اليوم أسلوبية التعبير، وهي " دراسة لقيم تعبيرية وانطباعية خاصة بمختلف وسائل التعبير التي في حوزة اللغة " (٥٣) .

الهوامش

١. البلاغة تطور وتاريخ / ١٩٠ - ١٩١ .
٢. المصدر نفسه / ٢٠٤ .
٣. دلائل الإعجاز / ٣٥ .
٤. المصدر نفسه / ٣٨ .
٥. عبدالقاهر الجرجاني بلاغته ونقده / ١١٦ .
٦. دلائل الإعجاز /٣٥٢ .
٧. المصدر نفسه / ٣٦١ .
٨. المصدر نفسه / ٣٤٧ .
٩. المصدر نفسه / ٤٠ ، ٤٤ .
١٠. ينظر : البيان العربي / ١٧٠ وما بعدها .
١١. أسرار البلاغة / ٢ – ٣ .
١٢. دلائل الإعجاز / ٦٩ .
١٣. المصدر نفسه / ٦٩ – ٧٠ .
١٤. الأسلوبية الى أين ؟ / ٣٦٢ .
١٥. دلائل الإعجاز / ٣٠٠ – ٣٠١ .
١٦. أسرار البلاغة / ١٠ ، وينظر : الأسلوبية الى أين ؟ /٣٦٣ .

١٧. الأسلوب والأسلوبية / ٣٢ (بيير جيرو) .
١٨. الأسلوب / ٣٨ .
١٩. البيان العربي / ١٩٥ .
٢٠. المصدر نفسه /١٧٧ .
٢١. نظرية النقد العربي وتطورها / الجزء الثاني من نظرية الشعر العربي / ١٩٥ .
٢٢. الأسلوب / ٤٤ .
٢٣. المصدر نفسه / ٤٥ .
٢٤. المصدر نفسه / ٤ .
٢٥. أسرار البلاغة / ٢٠ .
٢٦. المصدر نفسه / ٤ ـ ٥ .
٢٧. المصدر نفسه / ٦ .
٢٨. المصدر نفسه / ٧ .
٢٩. المصدر نفسه / ١٠ .
٣٠. المصدر نفسه / ٣٢ .
٣١. المصدر نفسه / ٤٩ .
٣٢. المصدر نفسه / ٥٠ .
٣٣. الأسلوب والأسلوبية / ١٩(كَراهم هاف) .
٣٤. المصدر نفسه والصفحة نفسها .
٣٥. أسرار البلاغة / ٣٢ ـ ٣٣ .
٣٦. المصدر نفسه / ١١٨ .
٣٧. المصدر نفسه والصفحة نفسها .
٣٨. المصدر نفسه // ٩٢ ـ ٩٦ .
٣٩. الأسلوب والأسلوبية /٢٣ (كَراهم هاف) .
٤٠. أسرار البلاغة / ١٩٤ ـ ١٩٥ .
٤١. الأسلوب والأسلوبية /٢٣ (كَراهم هاف) .
٤٢. أسرار البلاغة / ١٩٥ .
٤٣. اسرار البلاغة / ٨٥ ـ ٨٦ .
٤٤. المصدر نفسه / ٢٠ .
٤٥. المصدر نفسه / ٨٨ ـ ٨٩ .
٤٦. المصدر نفسه / ١٢٠ .
٤٧. المصدر نفسه / ١٢١
٤٨. المصدر نفسه / ١٢٣ .
٤٩. البيان العربي / ١٨٨ .
٥٠. أسرار البلاغة / ٢٥١ .
٥١. المصدر نفسه / ٣١٦ .
٥٢. دلائل الإعجاز / ٤٩ .
٥٣. الأسلوب والأسلوبية / ٣٤ (بيير جيرو) .

ثبت المصادر والمراجع

- ❖ اسرار البلاغة – عبدالقاهر الجرجاني – تصحيح السيد محمدرشيد رضا – دار المطبوعات العربية للطباعة والنشر (د . ت) .
- ❖ الأسلوب – دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية – تأليف أحمد الشايب – مكتبة النهضة المصرية – الطبعة الثالثة – القاهرة ١٩٥٢م .
- ❖ الأسلوبية الى أين ؟ - الدكتور أحمد مطلوب – مجلة المجمع العلمي العراقي – المجلد ٣٩ الجزء ٣ – بغداد ١٩٨٨ م .
- ❖ الأسلوب والأسلوبية – بيير جيرو – ترجمة منذر عياشي – مركز الإنماء القومي – بيروت – لبنان (دون تأريخ) .
- ❖ الأسلوب والأسلوبية – كَراهام هاف – ترجمة كاظم سعدالدين – دار آفاق عربية – العدد الأول – ١٩٨٥م .
- ❖ الأفكار والأسلوب – أ : ن : تشيتشرين – ترجمة الدكتورة حياة شرارة – طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد (دون تأريخ) .
- ❖ البلاغة تطور وتاريخ – الدكتور شوقي ضيف – دار المعارف بمصر – ١٩٦٥ م.
- ❖ البيان العربي – دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى – الدكتور بدوي طبانة – مطبعة الرسالة - الطبعة الثالثة (د . ت)
- ❖ دلائل الإعجاز – عبدالقاهر الجرجاني – تصحيح وطبع السيد محمد رشيد رضا – مطبعة دار المنار – الطبعة الثالثة – ١٣٦٦هـ .
- ❖ عبدالقاهر الجرجاني بلاغته ونقده – الدكتور أحمد مطلوب – الناشر : وكالة المطبوعات – الكويت – الطبعة الأولى بيروت – ١٩٧٣ م .
- ❖ نظرية النقد العربي وتطورها الى عصرنا – الجزء الثاني من نظرية الشعر العربي – محيي الدين صبحي – الدار البيضاء للكتاب – ليبيا – ١٩٨٤ م .

Dr. Tawfiq Ibrahim Salih
Assistant professor
College of Education ‘ KirKuK University

<u>Abstract</u>

Style in Rhetoric Secrets

This research aims at exploring the view of Abdul Qahir Al- jurjane for style the his Rhetoric Secrets. After exploring this book ‘it was found that the linked style practically and theore tically with his view of the system . According to this ‘ he determined style that it is the same ‘ and all the arts are stylistic elements . meaning are arranged first in Soul ‘ then the pvonunciations are arranged in accordance .Similarity leaves the soul alone without ahelper. As for metaphor’ with its various shapes’it provides style with aesthetic elements ‘and gives the statement in anew image . This has an important impact on the audience .